

التحليل اللساني - التواصلي لسورة التوبة عند محمد أركون

الكلمات المفتاحية (التحليل اللساني - سورة التوبة - محمد اركون)

د. حكيم سلمان السلطاني

الكلية الإسلامية الجامعة في النجف الأشرف

Communicative analysis of the surah of repentance by

Muhammad ARQUN

Key words (Communicative – analysis – Muhammad ARQUN)

Dr. Hakim Salman AL- sltani

Islamic University College / Najaf

المقدمة:

احتل القرآن الكريم مكانة مركزية في الفكر الإسلامي، فهو المشكّل لوعيهم وثقافتهم، والمؤسس لحضارتهم، وقد انبثقت عن هذه المركزية عناية نبعت من حرصهم على "لغة القرآن الكريم" والتي مثّلت في أدنى تأمل لها رسالة اتصالية موجّهة للبشرية. فالقرآن الكريم يمثل عملية الاتصال بكامل عناصرها من مرسل ومرسل إليه ورسالة وقناة اتصال وأكثر. لذا دعا العقول لأن تتأمله وتبحث فيه، فكثرت المؤلفات التي تكشف عن أسراره.

وقد قدّم العلماء العرب في العصور الوسطى أفكاراً قيمة في هذا الموضوع، لا تقل درجة عما هو موجود في الدراسات الحديثة، فقد كانت لديهم نظرات ثاقبة في وصف العملية الاتصالية وأركانها وشروطها ووظائفها، وهذا ما كان ماثلاً في تضاعيف مصنفاتهم.

أمّا في هذا البحث فنحن أمام تطبيق متميّز للسانيات التواصلية على القرآن الكريم، سعى محمد أركون من خلاله إلى إنتاج المفاهيم التي هي نتاج البحث اللساني المعاصر وكيف يمكنها أن تنتزّل على الخطاب القرآني. ومنها فضاء التوصيل أو النماذج التمثيلية الفاعلة للكشف عن البنية المتحركة بالعلاقات بين الأشخاص والضمائر وإطار التوصيل المشترك الذي يشمل كل الأساليب ويوجهها طبقاً لمراتب هرمية، ويوضح الأدوار والوظائف وصراع الضمائر والذوات للكشف عن تشكيل المسار السردي، وكل ذلك في نظر أركون من شأنه أن يبرز آليات مفصلة المعنى في الخطاب القرآني.

وقد حاول محمد أركون من خلال تطبيقه للسانيات في تمثله القرآني لسورة التوبة، إلى إعادة تقويم مفهوم الوحي عن طريق أخذ بعده التاريخي بالحسبان، لا على أنه متعلّج جوهري، أزلي، أبدي يقف عالياً فوق التاريخ البشري، على الرغم من أنه أرسل لهديته وقيادته على هذه الأرض.

فالتحليل اللساني في نظر محمد أركون يفرض على الدارس ممارسة تمرين من النقص والنقاء العقلي والفكري لا بد منه. إنه يمثل فضيلة ثمينة جداً ولاسيما أنّ الأمر يتعلق هنا بقراءة نصوص محددة كانت قد ولّدت وشكّلت طيلة أجيال كثيرة الحساسيات والمخيلات الجماعيين والفرديين. وعندئذ نتعلم كيف نقيم مسافة منهجية تجاه النصوص أو بيننا وبين النصوص "المقدسة" من دون إطلاق أي حكم من الأحكام التيولوجية (الإيمانية) أو التاريخية.

وهذا التحليل للخطاب أو تفكيكه لا يتم - بحسب أركون- لتقديم معانيه الصحيحة وإبطال التفسير الموروثة، بل لإبراز الصفات اللسانية اللغوية وآلات العرض والاستقلال والإقناع والتبليغ والمقاصد المعنوية الخاصة بما أسماها " الخطاب النبوي".

Introduction:

The Holy Quran occupies a central position in Islamic thought. It is the problem of their awareness and culture, and the founder of their civilization. The centrality of this centrality stems from their concern for the "language of the Holy Quran" which represented in its lowest hopes a message of communication addressed to humanity. The Holy Quran represents the whole communication process of sender and sender, message and communication channel and more. So he called the minds to think and look at it, so many books that reveal secrets.

Arab scientists in the Middle Ages presented valuable ideas on this subject, no less than what is found in modern studies. They had insight into the description of the communicative process, its elements, its conditions and its functions, and this was reflected in the duplication of their works.

In this research, we are faced with a distinct application of the Qur'anic texts on the Holy Quran, through which Muhammad Arkoun sought to produce the concepts that are the product of contemporary linguistic research and how they can descend upon the Qur'anic discourse. Including the connecting space or representative models to reveal the structure of interpersonal relations and pronouns, and

the framework of the common connection which includes all methods and directs them according to hierarchical hierarchy. It explains the roles and functions and the struggle of pronouns and pronouns to detect the formation of the narrative path. Meaning in the Qur'anic discourse.

Through his application of the Sunnahs in his Qur'anic representation of the Sura of repentance, Muhammad Arkoun tried to re-evaluate the concept of revelation by taking his historical dimension into account, not as a transcendent, eternal, eternal transcendent who stands high above human history, although he sent his guidance and leadership to this Earth.

The linguistic analysis in the eyes of Mohammed Arkoun imposed on the student exercise exercise of asceticism and mental and intellectual purity is a must. It is a very valuable virtue, especially as it is here to read specific texts that have been born and formed for generations generations sensitivity and imagination collective and individual. We will then learn how to construct a systematic distance to the texts or between us and the "sacred" texts without releasing any of the (historical) or theological judgments.

This analysis of the discourse or its disintegration is not, according to Arkoun, to present its true meaning and invalidate the inherited interpretations, but rather to highlight the linguistic linguistic, presentation, independence, persuasion, reporting and moral purposes of what he called the "prophetic discourse".

مفهوم التواصل

١- في بلورة المصطلح

ذكر العلماء أن مصطلح التواصل مشتق من الكلمة اللاتينية (communis) التي تعني في أساسها المشاركة؛ أي الاشتراك سواء في المعلومات وتبادلها، أو في المشاعر والاتجاهات ووجهات النظر^(١).

ويجب أن نشير هنا إلى أنّ أول من وضع نظرية له هو اليوناني كوراكس corox، ثم طوّرها تلميذه تيزياس tiasis، وكانت نظريتهما مبنية على أسلوب المرافعة، ذلك أن هذا الأسلوب يعد صناعة الإقناع^(٢). كما عد كل من أرسطو aristate (ت ٣٢٢ ق.٢) وأفلاطون platon (ت ٣٤٧ ق.م) مؤسسي دراسات الاتصال، بحكم أنهما توصلا إلى فكرة جوهرية مفادها أنّ الاتصال ما هو إلا فن، أو صناعة يمكن تعلمها بالتمرين، لذلك يمكن عدّه علما قائما بذاته^(٣).

جاء في لسان العرب أنّ أصل (تواصل) من ((وصل: وصلت الشيء وصلا وَصَلَة، والوصل ضد الهجران (..) الوصل خلاف الفصل وفي التنزيل العزيز. ولقد وصلنا لهم القول، أي وصلنا ذكر الأنبياء وأقاصيص من مضى بعضها ببعض، لعلهم يعتبرون. واتّصل الشيء بالشيء: لم ينقطع (..) والوصل ضد الهجران. التواصل: ضد التصارم))^(٤).

التواصل إذن، كلمة مشتقة من الجذر (و، ص، ل) الذي يمنح دلالة الصلة القوية بين الناس والترابط المتين فيما بينهم.

تكاد تتفق أغلب الدراسات والبحوث التي أنجزت حول التواصل الإنساني بأنه يصعب إعطاء تعريف واحد محددة للتواصل، والسبب في ذلك يرجع إلى أن التواصل الإنساني أصبح حقلا معرفيا تتقاسمه العديد من المعارف والعلوم (علم النفس- علوم التربية- علم الاجتماع- الفلسفة- الانثربولوجيا- اللسانيات..). ولذلك نجد تعريفات مختلفة ومتعددة باختلاف هذه الدراسات وتعددها^(٥).

جاء في معجم اللسانيات الذي أشرف عليه جون دييوا J.dubois تعريفان:

أولهما: إنّ التواصل La Communication هو تبادل كلامي بين المتكلم الذي ينتج ملفوظاً أو قولاً موجّهاً نحو متكلم آخر inter locuterur يرغب في السماع أو إجابة واضحة أو ضمنية explicite ou implicite، وذلك تبعاً لنموذج الملفوظ الذي أصدره المتكلم le sujet parlant.

فالتواصل على أساس التعريف الأول نشاط يقوم على التبادل الكلامي بين متكلم يوجّه كلامه نحو متلقٍ ليجلب انتباهه إلى هدف ما.

ثانيهما: التواصل حدث، نبأ ينتقل من نقطه إلى أخرى ونقل هذا النبأ يكون بواسطة مرسله استقبلت عدداً من الأشكال المفكوكة^(٦).

أما على أساس التعريف الثاني يرى عبد الجليل مرتاض أن هذا التعريف غامض، لأنه عمم ما يتصل باللغة وغيرها؛ إذ لم يقتصر فقط على اللغة لكونها الوسيلة الأساسية بل تعدى ذلك إلى خارج اللغة.

وعليه فالعملية التواصلية تتم من خلال وسائل معينة لغوية وغير لغوية إلا أن النشاط اللغوي هو الأساس في العملية التواصلية إذ به يتمكن الإنسان من التواصل ذاتياً وفردياً وجماعياً وثقافياً.

وينبغي في هذا المقام التمييز بين مصطلحات من مثل (الاتصال، الإيصال، التوصيل)، ومصطلح (التواصل) الذي قد يستعمل للدلالة على المعنى نفسه. فالمصطلحات الأولى يتم فيها نقل المعلومة إلى المخاطب بهدف التأثير فيه، دون التأثير باستجاباته، ولذلك كان ضدها الانفصال.

على حين مصطلح (التواصل) يعبر عن الحمولة الدلالية للعملية التواصلية المبنية على التفاعل والتشارك والتبادل. لأن الصيغة الصرفية (تفاعل) تفيد في اللغة العربية معنى المشاركة بين طرفين.

ونحن إذ نطلق مصطلح (التواصل) على بنية الخطاب القرآني، منطلقين في ذلك من اعتقاد الحدائين أنّ القرآن هو تفاعل بين طرفين بين المرسل والمرسل إليه، بحيث يغدو المرسل إليه (المتلقي الأول/المتلقون) فاعلاً حقيقياً ومن ثم فهو مرسل ثانٍ في هذه العملية التواصلية.

٢ - في التحليل اللساني:

أسهمت اللسانيات الحديثة، كباقي العلوم الأخرى، في إغناء البحث التواصلي من خلال مجموعة من الأعمال والنظريات التي قدّمها دارسون مختصون في مجال اللسانيات ك(جاكوبسون، وهاليداي، وديل هايمز، وكنالي وسواين، وسيمون ديك)^(٧).

وقد شكّلت الوظيفة الأساسية للغة، وما تزال مثارَ جدلٍ بين العلماء، إذ ذهب اللغوي الانكليزي جفونز Jevons في كتابه "مبادئ دروس المنطق" Elementary Lessons of Logic إلى أنّ للغة وظائف ثلاثاً^(٨).

أ- أنها وسيلة للتوصيل، يعني بذلك أنها أداة لتوصيل الأفكار والمعاني والانفعالات والرغبات.

ب- أنها مساعد آلي للتفكير.

ج- أنها وسيلة للتسجيل والرجوع إليه، ويقصد بذلك لغة الكتابة؛ حين يدون الإنسان أفكاره ليرجع إليها من بعد، ومن ثمّ يستحضر أفكاره السابقة.

وجلي أن هذه الأهداف الثلاثة تنحصر كلها في نطاق الفكر، أي أنّ اللغة، لا تؤدي إلّا وظيفة واحدة هي الاتصال، أو التوصيل، أو النقل أو التعبير.

وهذا ما أشار إليه يسبرسن personjes حين تناول بالنقد الوظيفتين الأخيرتين اللتين ذكرهما جفونز^(٩).

وحتى لو قلنا بالوظائف الأخرى للنشاط اللغوي كالقول بأنّ اللغة (أداة تفكير)، أو أنّ اللغة (وسيلة تصوير)، فإنهما أيضاً ترجعان إلى وظيفة التواصل بأنّ اللغة (أسلوب تعبير)، أو نستطيع أن ندرجهما في ضمن التواصل الذاتي، أو الفردي، أو الجماهيري.

أ- التواصل عند دي سوسير:

أسهمت الدراسات اللغوية منذ بدايات القرن الماضي في دراسة اللغة وتبين ماهيتها البيولوجية ومهمتها الاجتماعية، ولعل أبرز تلك الدراسات اللغوية، نظام العلامة الذي قدمه اللغوي فردينان دي سوسير والذي يفترض فيه أنّ الدائرة الكلامية تحتاج إلى وجود شخصين في الأقل، وهذا أقل عدد يقتضيه اكتمال الدائرة، لنفترض أنّ شخصين (أ- ب) يتحدث بعضهما إلى بعض ولنفترض أن

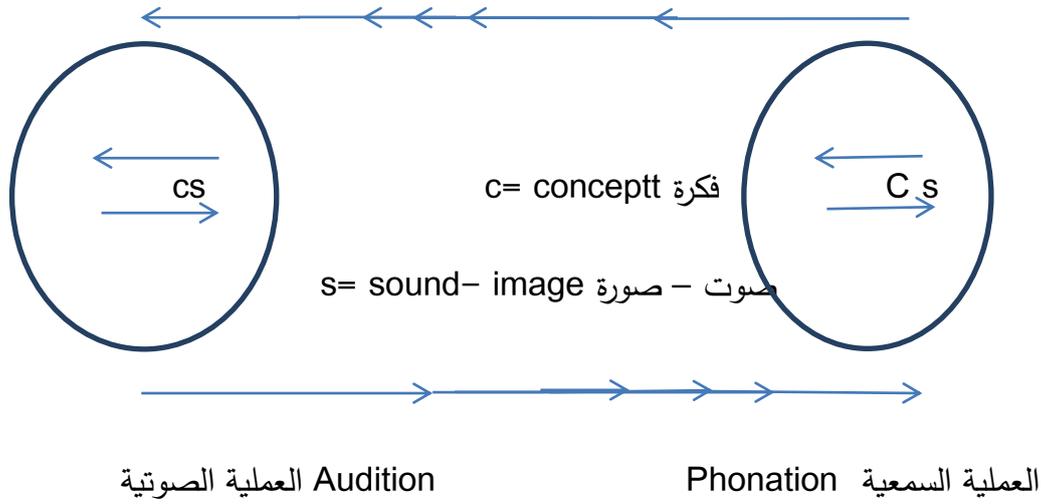
بداية الدائرة هي في دماغ (أ)، إذ ترتبط الحقائق الفكرية (الأفكار) بما يمثلها من الأصوات اللغوية (الصورة الصوتية) التي تستعمل للتعبير عن هذه الأفكار.

فالفكرة المعينة تثير الصورة الصوتية التي ترتبط بها وهذه الظاهرة السايكولوجية تتبعها عملية فلسجية، إذ يرسل الدماغ إشارة مناسبة للصورة إلى الأعضاء المستعملة لإنتاج الأصوات، فتنتقل الموجات الصوتية، من فم الشخص (أ) إلى أذن الشخص (ب) وهذه العملية فيزيائية محضة.

ثم تستمر الدائرة عند الشخص (ب)، ولكن بأسلوب معكوس، إذ تسيير الإشارة من الأذن إلى الدماغ، وهو إرسال فلسجي للصورة الصوتية، ويتم في الدماغ الربط السايكولوجي بين الصورة والفكرة، فإذا تكلم الشخص (ب) بدأ فعل جديد من دماغه إلى دماغ الشخص (أ)، متابعا خط السير نفسه الذي سار فيه الفعل الأول ومازًا بالمراحل نفسها. وتوضّح هذه العملية بالرسم

Phonation

Audition :^(١٠) الآتي



فإذا كان التصور الذهني في دماغ الشخص (ب) مساويا للتصور الذهني في دماغ الشخص (أ) كان التواصل بينهما جيدا^(١١).

ومن هنا نرى أن سوسير قد حدد دورة تواصلية بين طرفي التواصل، انطلاقا من الفكرة إلى الصورة الصوتية المنقلة عبر الموجات الصوتية إلى السامع الذي هو بدوره ينتج العملية نفسها.

ب-التواصل عند جاكبسون:

رومان جاكبسون هو أحد أبرز مؤسسي حركة الشكلايين الروس ١٩١٥م، وحلقة براغ الألسنية ١٩٢٠م، ولم يطور فقط مفاهيم الشكلايين الروس وإنما مفاهيم (سوسير) نفسه. بخاصة فيما يتعلق بمفاهيم (النظام اللغوي) (la systeme) والوظائف المرتبطة به، وما يتصل بهما، كموضوع الأدب وطبيعة الظاهرة الأدبية وخصوصيتها ونظرية الاتصال.

فهو يرى أنّ اللغة وسيلة للتواصل الإنساني، الذي لا يتحقق إلا بتوفر العناصر الآتية:

١- المرسل: **destinateur**

هو مصدر الخطاب، والباعث الأول على إنشاء الخطاب، وينشئ كلامه من خلال اعتماد نظام لغوي ورمزي يعتمد مستقبل الرسالة أيضا في تلقيه وفهمه. فيوجه المرسل خطابه ويجسده أما في شكل منطوق مباشر يكون في المرسل في التخاطب اللفظي متكلما، أو في شكله المكتوب وهو تكلم غير مباشر، يكون فيه المرسل مؤلفا. كما يمكن أن يكون الكلام المنطوق أو المكتوب مجهول القائل أو المؤلف، ليكون فيها شخص المرسل مجهولا أيضا^(١٢).

٢- المرسل إليه: **destinateur**

هو المستقبل للكلام، الذي يفكك أجزاء الرسالة التي يتلقاها، سواء أكانت كلمة أم جملة أم نصا. وقد يكون المرسل إليه مستمعا كما في حالة التخاطب الشفاهي، وقد يكون قارئاً كما في التخاطب الكتابي، وقد يكون القارئ افتراضيا أو ضمنيا يفترضه أو يتصوره المؤلف والمتكلم، إذ يتوجه الكاتب أو المتكلم إلى جمهور محدد ليرسل إليه رسالته ويصوغها له، لإلقاء معلومة أو تقرير حقيقة، يفترض المؤلف أو المتكلم أنّ القارئ أو المستمع يفهم ما يريد فيها. كما يظهر توجه الكاتب (أو المتكلم) نحو هذا الجمهور أو ذلك على تفاوت فاعليته من خلال عدد من الأدلة التي منها مستوى اللغة والمفردات الشائعة أو المتخصصة، وترتسم صورة المرسل إليه من خلال الكتابة التي يعتمدها المؤلف أو المتكلم، ومن الفضاء الاجتماعي (السياق) الذي تحصل فيه عملية التخاطب أو الكتابة^(١٣).

٣- الرسالة **message**

هي الجانب الملموس في العملية التخاطبية التي تجسد أفكار المرسل في صور سمعية عندما يكون التخاطب شفاهيا، وفي علامات خطية عندما تكون الرسالة مكتوبة. وتعرّف الرسالة في

قاموس اللسانيات بأنها: ((وحدة الإشارات المتعلقة بقواعد تركيبات محدودة (مضبوطة) يبعثها جهاز البث (الإرسال) إلى جهاز الاستقبال عن طريق قناة حيث تستعمل كوسيلة مادية للاتصال))^(١٤).

٤- السنن : code

أو الشيفرة، وهي عبارة عن نظام ترميز مشترك كلياً أو جزئياً بين المرسل والمتلقي، ويكون نجاح أية عملية إبلاغية معتمداً عليها، بحيث يتمكن المرسل إليه فيها من استقبال رسالة ما وتفكيك رموزها بحثاً عن القيمة الإخبارية التي شحنت بها. ففعالية الحدث الكلامي، كما يقول جاكسون، ((مرهونة باستخدام شيفرة مشتركة بين المساهمين فيه))^(١٥).

٥- السياق : context

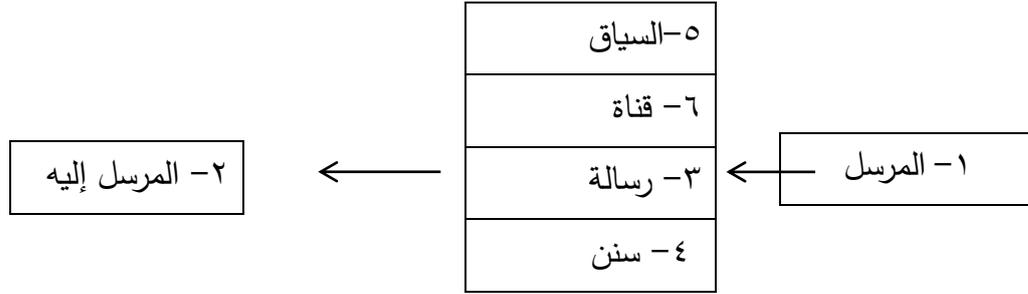
هو السياق المضبوط أو المحيط الذي تولد فيه الرسالة أو قيلت فيه، ويكون بمثابة العنصر المفعّل لها بما يمدّها به من ظروف وملابسات توضيحية، بحيث لا تفهم مكوناتها الجزئية ولا يمكن تفكيك رموزها السننية إلا بالإحالة إلى الملابسات التي أنجزت فيه^(١٦). فالسياق جزء من عملية التواصل، والمحادثات تأخذ طبيعة علائقية، ونحن لا نتكلم لأجل الكلام بل لصيانة الوشيجة الاجتماعية، كما يؤخذ بالحسبان المشاركون في العملية التواصلية ومميزاتهم الشخصية من حيث العمر والجنس والمهنة، وعلاقتهم المتبادلة من حيث درجة معرفة المتخاطبين وطبيعة علاقاتهم الاجتماعية (المهنية والعائلية) وعلاقتهم العاطفية^(١٧).

٦- القناة canal

هي الوساطة التي تنقل الرسالة عبرها، وتكون في الغالب فيزيائية، أما من خلال التواصل الفيزيولوجي بين المرسل والمرسل إليه الذي يسمح بإقامة اتصال ويحصل بالنقل والتلقي الشفاهي، وأما عبر النص المكتوب، وأما غيرها كما في وسائل الاتصال الحديث المتعددة. فقناة الاتصال هي مجموع العمليات المادية المتحققة بدءاً بكتابة المؤلف للنص وانتهاءً بفعل القراءة وتملك القارئ لهذا

النص بصورة كتاب، فيدخل فيها التسويق والنشر وصفحة الغلاف. وقد يحصل تشويش في قناة الاتصال، من قبيل أغلاط الطبع، وسوء التوزيع والتسويق، وعدم امتلاك القارئ للشفرة بالقدر الكافي، ومنها الرقابة، وتحريف النص، وغير ذلك^(١٨).

ونستطيع تمثيل هذه العناصر اللازمة لتحقيق عملية التواصل كما يأتي:



إن كل عنصر من هذه العناصر يوِّلد وظيفة لسانية مختلفة، وعليه يميز جاكبسون بين ست وظائف للغة، هي:

١- الوظيفة التعبيرية:

وتسمى أيضا الانفعالية، وتركز على المرسل لأنها تهدف إلى أن تعبر بصفة مباشرة عن موقف المتكلم تجاه ما يتحدث عنه، وتنزع إلى تقديم انطباع عن انفعال معين والتعبير عن عواطف المرسل ومواقفه بإزاء الموضوع الذي يعبر عنه. وتشتد الطبقات الانفعالية وضوحا في الخطاب المنطوق المباشر، فالخطاب الشفاهي يستعمل آلية فيزيولوجية في النبر والتخيم والترقيق والجهر والهمس وارتفاع الصوت والمحاورة، في حين أن التواصل الكتابي يقتصر على استعمال أدوات لفظية ذات طابع دلالي خاص يتم إدراكها من خلال الشيفرات اللغوية المتعارف عليها في المجتمع المتخاطب مثل صيغة التعجب والاستغاثة والندبة^(١٩).

٢- الوظيفة الإفهامية:

وهي موجّهة إلى المتلقي ومختصة به، وتهدف إما إلى الإفهام والإقناع، حيث يستعمل الخطاب الحجج المنطقية أو الجدالية التي تدفع المخاطب للتسليم بمدلول الرسالة أو الخطاب. وإما إلى إحداث تأثير ومتمعة وإثارة لدى المتلقي، إذ يوِّلد التأثير مفاجأة غير منتظمة عند المتلقي أو

يخلق اندهاشا فيه، أو يدخل نشوة في نفس مستقبل الرسالة بفضل الشحنات العاطفية العالية المختزنة في الرسالة لاسترضاء وجدان وعاطفة المتلقي.

ويطلق عليها بعض اللسانيين مصطلح "وظيفة تأثيرية"، وهو اصطلاح مهم يمكن استثماره إلى جانب الإفهامية، ذلك أن الأولى ينظر إليها من وجهة نظر عقلية، على حين الثانية ينظر إليها من وجهة نظر عاطفية^(٢٠).

٣- الوظيفة الانتباهية:

وهي أنماط لغوية تقوم بأدوار خارجة عن نطاق الخطاب البلاغي، لا لتزود المتلقي بقيم إخبارية، وإنما لتؤدي وظيفة المحافظة على سلامة جهاز الاتصال، والتأكد من مرور سلسلة الرسائل الموجهة إليه على الوجه الذي أوصلت إليه. كقول المتكلم على الهاتف (ألو) أو (هل أنت معي) أو (ركّز معي). فالعملية التواصلية هنا تنسحب قليلا من دائرة الرسالة للتأكد من مرورها^(٢١).

٤- الوظيفة المرجعية:

وقد ترجمها بعضهم بالوظيفة المعرفية أو الإيحائية، لكونها تتحدث عن أشياء وموجودات خارجية وتركز عليها. وما الرسالة سوى رمز لهذه الأشياء وتعبير عنها، فهي توحى بأنها استعاضت عنها وأخذت مكانها أو نابت عنها. فتكون الرسالة بمثابة دليل أو علامة لغوية استعملت في العمليات التخاطبية بوصفها نائبة عن أشياء تتحدث عنها بدل استحضارها داخل السياق الخطابي^(٢٢).

وهذا يتوافق مع جعل سوسير العلامة الألسنية متقومة بالمدال والمدلول، إذ يقوم الذهن عند حضور الدال من خلال صورته السمعية إلى استحضار مباشر وآلي للمدلول من حيث هو تصور ذهني^(٢٣).

٥- الوظيفة ما وراء اللغة:

تستعمل هذه الرسائل عندما يشعر المتخاطبان أنها تحتاج إلى التأكد من الاستعمال الصحيح للسنن التي يوظفان رموزها في العملية التخاطبية. فيكون الخطاب مركزا على السنن لأنه يشغل وظيفة ميتالسانية أو وظيفة شرح. كأن يتساءل المستمع: إنني لا أفهمك ما الذي تريد قوله؟ أو تقول: أتفهم ما أريد قوله؟. يكون الكلام هنا كلاما عن الكلام بدل الكلام عن الأشياء^(٢٤).

٦- الوظيفة الشعرية:

تكون المرسله في هذه الوظيفة مقصوده لذاتها كما في النصوص الفنية اللغويه. فهي وظيفه غائيه، تهدف إلى إدراك الكلمه بوصفها كلمه لا مجرد بديل عن شيء مسمى أو تفجير عاطفه. إنها تتجلى لا في كون الكلمات ونحوها ومعناها وشكلها الخارجي علامات لا مبالية للواقع، بل من حيث كونها كلمات لها وزنها الخاص وبنيتها المادية وقيمتها الذاتية، تجعل أجزاء النص ترتبط بنظام العلاقات الداخليه للنص لتحقيق له ديناميه تقنيه الجمود أو الموت^(٢٥).

وقد ردّ جورج موان على جاكسون، بقوله ((إنّ هذه الوظائف الست تخفي وظيفه التواصل اللغوي التي تمثل الوظيفة الوحيدة للغة، وذلك عن طريق تجزئتها. فما يسميه وظائف يعتبر استعمالات خاصة باللغة يمكن أن تتواجد على درجات في كل اتصال. ولا نجد لهذه الوظائف الست المقترحة معايير لغويه شكلية حقيقية على الرغم من الجهد الذي بذله جاكسون للبرهنة عليها، فهو لا يميز بينها إلا من خلال إشارات سيكولوجية، أو دلالية، أو ثقافية (...)) إن الوظائف الياكسونية لا تفسر عمل اللغة وتطورها من وجهة نظر لسانية، وذلك بعكس وظيفه التواصل المعرفه بدقه^(٢٦).

التحليل اللساني - التواصلي لسورة التوبة:

في قراءة محمد أركون لسورة التوبة يسعى إلى إنتاج المفاهيم التي هي نتاج البحث اللساني المعاصر وكيف يمكنها أن تنتزّل على الخطاب القرآني. ومنها فضاء التوصيل أو النماذج التمثيلية الفاعلة للكشف عن البنية المتحكمة بالعلاقات بين الأشخاص والضمائر وإطار التوصيل المشترك الذي يشمل كل الأساليب ويوجهها طبقاً لمراتب هرمية، ويوضح الأدوار والوظائف وصراع الضمائر والذوات للكشف عن تشكيل المسار السردى، وكل ذلك في نظر أركون من شأنه أن يبرز آليات مفصلة المعنى في الخطاب القرآني.

وقد ذهب محمد أركون من خلال سورة التوبة إلى إعادة تقويم مفهوم الوحي عن طريق أخذ بعده التاريخي بالحسبان، لا على أنه متعالٍ جوهرائي، أزلي، أبدي يقف عالياً فوق التاريخ البشري، على الرغم من أنه أرسل لهدايته وقيادته على هذه الأرض. بيد أنّ هذه المهمة ارتطمت بعقبتين: العقبة الأولى طمس التدوين الرسمي لأكثر تمفصلات الوحي التاريخية، وميله المستحکم والمستبد إلى تحوير هذا الحدث وتحويله إلى نوع من تاريخ الخلاص الأخرى بتشكيلات استدلالية تارة، وبروايات ومستندات تارة أخرى. والعقبة الثانية: إسباغ الخطاب القرآني نفسه على حدث الوحي صفة التعالي، ورفع من المستوى الأرضي إلى المستوى الفوقي عن طريق ربطه بإرادة الله ومشيبته.

وتبيّن سورة التوبة تاريخية مفهوم الوحي من خلال:

- ١- لغتها الجدالية الحادة.
- ٢- الموضوعات الاجتماعية والتشريعية والسياسية التي تثيرها.
- ٣- طول نص السورة.
- ٤- تصنيف السورة فئات المجتمع إلى:
 - أ- فئة المؤمنين: وهي الطائفة الجديدة الوليدة التي انخرطت، بعد فتح مكة، في عملية بناء المؤسسات.
 - ب- فئة المشركين: الذين يرفضون شرع الله ورسوله.
 - ج- فئة الأعراب: الذين يرفضون المشاركة في الحرب العادلة (أي الجهاد) المعلن في سبيل الله.

د- فئة أهل الكتاب: الذين اخضعوا واجبروا على دفع الجزية^(٢٧).

والهدف من دراسة سورة التوبة هو ((زحزحة مفهوم الوحي وتجاوزه، اقصد زحزحة وتجاوز التصور الساذج والتقليدي الذي قدمته الأنظمة اللاهوتية عنه))^(٢٨). فالمقصود من هذه الدراسة ليس اختزال مفهوم الوحي أو حذفه إنما زحزحته بإيجاد مفهوم أكثر حساسية وموضوعية وذلك من خلال صيرورته الاجتماعية والتاريخية وتركيبته النحوية اللسانية.

واهتم أركون كثيرا بالآية الخامسة من سورة التوبة وهي قوله تعالى ((فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ)) والتي تدعى (آية السيف) محاولا أن يفهم منها سبب الحماسة المغالية والمتهورة للمؤمنين الحرفيين ممن يرفعون السيوف دون تفكير، وسر انزعاج المسلمين الليبراليين ممن يعشقون مفاهيم حقوق الإنسان والحرية الدينية وغيرها، واصفا كلاً الطرفين أنهم ((يسقطون على القرآن اهتمامات ومشاغل وأفكارا وأهواء سياسية خاصة بالتاريخ المعاصر لا بالتاريخ القديم، وهم بذلك ينكرون تاريخية القرآن بالقدر الذي ينكرون فيه تاريخية الفترة الحالية))^(٢٩).

ويشير محمد أركون سبب تركيزه على هذه الآية من سورة التوبة، يقول ((لأنه حتى في سورة التوبة المكرسة بأكملها للتأكيد على الانتصار السياسي والاجتماعي والثقافي والاحتفال به، فإن تلك الآية تشكل ذروة العنف الموظف في خدمة "حقوق الله"، والله ذاته يقدم نفسه هنا كحليف أعظم للجماعة المختارة. وبهذا المعنى نقول أن العنف قد تم تصعيده والتسامي به على هيئة قربان أو أضحية تم الرضاء بها كتعبير عن الطاعة المعترفة بالجميل))^(٣٠).

والعنف يُدل عليه بشكل غير مباشر في الآية عن طريق أفعال من نوع : قَتَلَ، حَاصَرَ، أُسِرَ، كَمَنَ (للعُدُو). وهي أفعال تدل على عمليات شائعة في جميع الحروب ولكن العنف لم يدل عليه هنا بطريقة مباشرة بواسطة فعل "عنف" أو كلمة العنف ذاتها^(٣١).

وأكد أنه لا يمكن دراسة هذه الآية بعيدا عن البنية التي تتحكم بالعلاقات بين الأشخاص والضمائر. واقصد بذلك إطار التواصل والتوصيل المشترك الذي يخترق الخطاب القرآني من أوله

إلى آخره بل ويمكننا بعد إجراء بعض التصحيحات أن نعمم هذا الإطار لكي يشمل كل الخطاب النبوي في التوراة والإنجيل.

١- فضاء التواصل في الخطاب القرآني:

إن الأسلوب التواصلية يشمل كل أنواع الأساليب الأخرى ويوجهها، هذه الأساليب التي تندمج داخل بعضها بعضا طبقا لمراتب هرمية ينبغي على التحليل اللساني أن يحددها بدقة، فالتواصل اللغوي يتحدد لسانيا على النحو الآتي:

مرسل ————— رسالة ما ————— مرسل إليه

فكل خطاب لغوي يهدف إلى توصيل رسالة شخصية أو كتابية من مرسل إلى مرسل إليه. أو من الله إلى الأنبياء ومن الأنبياء إلى البشر. فالله في الخطاب القرآني مرسل ومرسل إليه، بمعنى أن عنه يصدر كل شيء، وإليه يعود كل شيء، كما تقول الآية القرآنية: ((إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)) {البقرة/١٥٦}. والعلاقة بين الله ورسوله (أو بين المرسل والمرسل إليه) تحالفية وثيقة. والنبى نفسه له مكانة لغوية أو توصيلية مزدوجة أيضا: فهو مرسل إليه لأن الله يرسل إليه رسالة، وهو مرسل إلى البشر أو مبلغ. وحدهم البشر يتمتعون بمكانة لغوية واحدة: مرسل إليهم وعندئذ ينقسمون على قسمين، إما أن يطيعوا، وإما أن يعصوا^(٣٢).

ويلخص أركان بنية العلاقات هذه بالشكل الآتي^(٣٣):

مرسل إليه أول - مرسل أول (أنا المتعالية + أنا - نحن) — الموضوع (الخطاب النبوي)



مرسل إليه أول - مرسل ثانٍ (المتكلم أو القائل)



المرسل إليه الجماعي (أنصار / معارضون).

وكذلك في سورة العلق تبرز التركيبة التواصلية فـ ((إن البنية النحوية أو القواعدية للسورة تدل على العلاقات الكائنة بين الضمائر الشخصية: أي بين نحن، لك أو خاصتك (محمد)، أنتم (أي

المؤمنين)، هم (أي الناس)، أو هو (أي الإنسان). إن شبكة الضمائر هذه والعلاقات الكائنة بينها هي التي تؤسس الفضاء الأساسي المتواصل والمنتظم للتواصل والمعنى في كل الخطاب القرآني من أوله إلى آخره ((^(٣٤).

فالله يتبدى وكأنه (الذات الفاعلة الأساسية)، فالله ينظم الخطاب كله نحوياً، وبلاغياً، ومعنوياً، ويوجد إلى جانب ذلك فاعلان اثنان، النبي (ص) والإنسان.

الله (الذات الفاعلة الأساسية والمنظم لخطاب الوحي لغة)



الرسول (الفاعل الأول الذي يُوجّه إليه الأمر والوحي)



الإنسان (الفاعل الثاني يمثل الهدف الثاني والمخاطب الأخير الذي يُوجّه إليه الوحي).

فالتركيبية اللغوية لخطاب الوحي القرآني تتألف من الذات الفاعلة الأساسية هي (الله) ومن فاعلين اثنين هما الأول: النبي، والثاني: الإنسان.

ومنه فإنّ الخطاب القرآني بقصصه وأحكامه وموضوعاته وتعاليمه وأحداثه وكل ما يحتويه والمعبر عنه خلال ثلاث وعشرين سنة بصفته (كلام الله) ((هو تركيبية نحوية هرمية صارمة))^(٣٥).
تدور حول شخصين: الأول هو الله الذي يمثل الأصل الانطولوجي والمرجع النهائي لجميع المخلوقات والنشاطات والمعاني والأحداث التي تقع على هذه الأرض. والثاني: هو النبي أو الرسول محمد(ص) الذي يمثل الوسيط بين الله والإنسان.

وأما الإنسان فمدعو للخضوع للأوامر، وهو أما أن يطيع أو لا يطيع، وهو ما يعكس وجود توتر دائم في الخطاب القرآني بين الله المعبر عنه بالضمير "نحن" وبين الإنسان أو الناس المعبر عنهما بالضمير "هو"، "هم".

والمقصود بالوحي ((أن يقود الإنسان ويهديه إلى الصراط المستقيم أو النهج القويم الذي يقود في النهاية إلى النجاة الأبدية في الدار الآخرة))^(٣٦).

وهذا الوضع لا يعبر عن تعارض ثنائي بين قطبين: الله والإنسان، إنما هو في حقيقة الأمر يعبر عن جدلية مستمرة من التوتر الصراعي الذي ينبثق من خلاله الوعي بالذنب والخطيئة.

وعندئذ يحوّل الإنسان من توتر صراعي إلى وعي وذات مفكرة مسؤولة أخلاقياً وشرعياً وبعبارة محمد أركون ((أنه مسؤول عن كل فكرة، أو كل عمل، أو كل مبادرة تصدر عنه في حياته))^(٣٧)، أي أن الخطاب القرآني ينتهي إلى تمركز الإنسان بمعنى تحويله من ذات خاضعة مسلّمة إلى ذات واعية مفكرة وفاعلة ومسؤولة. وعليه فإن الإنسان في الخطاب القرآني هو - ذات فاعلة - بحسب أركون وليس ذات سلبية ومنفعلة.

٢- الفاعلون داخل المسار السردى القرآني:

١- (العامل - الذات - المرسل الأعظم) أي (الله) يقوم بعدة أدوار عاملية، أي نحوية في القرآن. فهو أولاً يظهر أو ينفجر في وجوهنا على هيئة "أنا" خارجية على النص ولكنها تشكل مصدراً نموذجياً أعلى لجميع عمليات القول أو النطق. ثم يظهر ثانياً على هيئة (أنا- نحن) منخرطة أو متواجدة على كل مستويات آلية اشتغال الخطاب، ثم بوساطته، نجدها منخرطة في التاريخ الأرضي الذي يقوده النبي - الرسول - المبيّر.

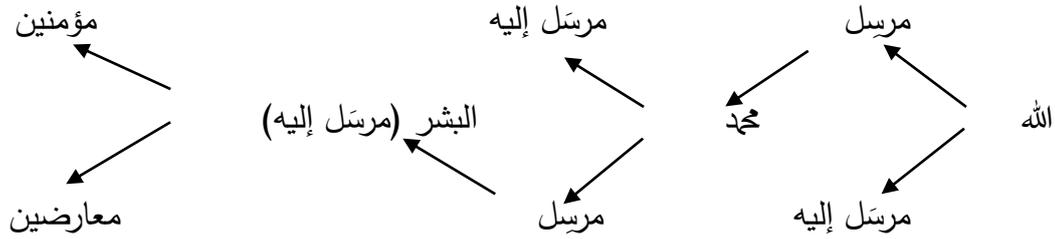
هذا التحليل الألسني لكلمة الله يضيء لنا شبكة العلاقات الضمائية الواردة في النص القرآني. كما أنه يضيء لنا كيفية توزّع الأدوار بين مختلف الضمائر التي تشغل النص، أي بين ضمير "الأنا-نحن" المعظمة الدالة على الله والتي تحرك الخطاب إما من الخارج أو تتدخل فيه مباشرة. ومعلوم أن كلمة (الله) حاضرة في الخطاب القرآني بشكل هائل وتهيمن عليه من أوله إلى آخره. فقد تكررت بصيغة الله ٢٦٩٧ مرة، وبصيغة الرب ٩٦٩ مرة، وأما على هيئة الصفات الدالة على الله كالرحمن، الرحيم، المنتقم، الجبار ... إلخ، فحدث ولا حرج^(٣٨).

٢- (العامل - الذات الثاني) المرسل إليه الأول (محمد)، وهو على علاقة تحالفية وثيقة مع المرسل الأول الذي يمتلك هو الآخر أيضاً مكانة مزدوجة فهو أولاً مرسل إليه. وهو ثانياً عامل - ذات ومرسل - مبيّر مفعم بالقوة الكلامية للعبارات أو الآيات المنقولة^(٣٩).

٣- (العامل - الذات الثالث) وهو المرسل إليه الجماعي وهو العامل الذات المعقد الثالث (والمدعو في القرآن بالقوم، أو الناس، أو المؤمنين، وذلك بحسب الحالات المتغيرة للخطاب)^(٤٠).

من الناحية المثالية يمكن القول بأنّ هذا العامل الثالث هو آدم وذريته المرتبطان كلاهما بالخالق (أي المرسل الأول) عن طريق العهد السياسي أو الميثاق. ولكن من الناحية العملية المحسوسة فإنه مشكّل في البداية من أهل مكة، ثم المدينة، ثم الحجاز، ثم دار الإسلام ككل. ((والمرسل إليه الجماعي يشمل بحسب الآية نفسها الأنصار المدعويين عموماً بالمؤمنين، والمعارضين المدعويين عموماً بالمشركين، أو المنافقين، أو الفاسقين، أو اليهود، أو النصارى))^(٤١).

ويمكن أن نوضح ذلك بالمخطط الآتي:



إن توضيح هذه الأدوار والوظائف كما تتجلى في الخطاب القرآني. يتيح لنا أن نركز الانتباه على آليات مُفصّلة المعنى أو تشكيله، وعلى كيفية استقبال هذا المعنى من السامعين المستهدفين من خلال الخطاب. على هذا النحو راح يتشكل الاعتقاد الجديد لغويا، وراحت تتشكّل الذات الإنسانية الجديدة نفسانيا.

وهذا يقودنا إلى معرفة المسار السردى المشترك لكل الخطاب القرآني، ثم عبره، لكل الخطاب النبوي. وهو مسار يحدده أركان في أربعة مراحل هي^(٤٢):

- ١- الحالة التي ينبغي تحويلها أو تغييرها (أي سحق جميع فئات المعارضين).
- ٢- بطل العملية (المرسل إليه الأول والأنصار).
- ٣- حلقات الصراع وتقلباته المختلفة.
- ٤- الاعتراف أو الحالة المحوِّلة والمغيِّرة (أي انتصار الإسلام).

ويتبع أركان هذه المراحل بالآية الخامسة من سورة التوبة ليوضح المسار السردى ويلاحظ ((أن العامل - الذات الثانية (أي القائل أو المتكلم) لا يظهر نحوياً، ولكنه يعود إلى الظهور في الآية التالية القائلة ((وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)). وأما العامل الذات الأول فيمكنه، كما هي الحال هنا، أن يتوجه مباشرة

إلى المرسل إليه الجماعي الذي يشمل بالضرورة على المرسل إليه الأول. وهو يتوجه إليه بأوامر قاطعة من نوع (اقتلوا، خذوهم، احصروهم، اقعدهم لهم كل مرصد! ...). وهكذا يتم تأكيد الوحدة العاملة، أي: (العامل - الذات الأول الأعظم) - (العامل - الذات الثاني) - (العامل - الذات الثالث)، أو: حزب الحق - الخير - العدل (تاريخ النجاة) المضاد لحزب الخطأ - الشر - الظلم (ويتمثل بالمعارضين المشار إليهم عن طريق ضمير الغائب: هم) ((^(٤٣).

أهمية التحليل اللساني لسورة التوبة:

لا تقدم القراءة الأركونية قراءة شاملة للنص القرآني، وإنما تختار بعض الآيات لتطبيق أدوات العلوم الإنسانية والاجتماعية. ويعول الخطاب الأركوني على التحليل اللساني كثيرا لأنه يقدم فرصة مناسبة لاختبار إجرائية الأدوات اللسانية التي يلجأ إليها والآفاق الابستمولوجية الجديدة التي يدشنها لتوليد المعنى.

فيحظى التحليل اللساني بأهمية معرفية ونقدية كبرى، لأنه يحرر العقل البشري بحسب أركون من الهالة الكبيرة التي تحيط بالنص، فتجعله نصا مهابا، وتحجب حقيقة ماديته اللغوية، أي حقيقة كونه مكتوبا بلغة بشرية معينة، وخاضعا لقواعدها اللغوية، والنحوية، والصرفية، والبلاغية.

وقد علّل هاشم صالح مترجم كتب أركون ((ولكنني أدرك لما ابتدأ أركون دراسته للقرآن بتطبيق المنهجية الألسنية. لقد أعطاهم الأولوية بالقياس إلى المنهجية التاريخية أو الانتربولوجية، وذلك لأن النصوص الدينية الكبرى تنسبنا أحيانا أنها نصوص لغوية. فمن كثرة قدسيتها وهيبتها التي تفرضها علينا، فإننا نتوهم أنها ليست مؤلفة من حروف وألفاظ، وتراكيب وجمل كبقية النصوص. وبالتالي فإنّ المنهجية الألسنية تساعدنا على تحييد الأحكام اللاهوتية أو الشحنات اللاهوتية الثقيلة التي تحيط بالنص الديني منذ مئات السنين. يضاف إلى ذلك أن المنهجية الألسنية الحديثة هي وحدها التي تستطيع أن تكشف لنا عن كيفية تركيب المعنى (أو مفصلته كما يقول أركون) من خلال طريقة تركيب الجملة أو العبارة اللغوية))^(٤٤).

ولهذا يصرّ أركون على أولوية التحليل اللساني بخاصة عندما يتعلق الأمر بالنصوص التأسيسية ذات الهيبة الكبرى ((فالتحليل اللساني يقدم لنا فرصة ذهبية لكي نمارس تدريبا منهجيا ممتازا يهدف إلى فهم كل المستويات اللغوية التي يتشكل المعنى أو يتولّد من خلالها وهذه الخطوة

المنهجية تمتلك أيضا رهانات ابستمولوجية فهي تتيح لنا - وهنا تكمن أهميتها الحاسمة - أن نترك مسافة نقدية فكرية بيننا وبين المسألة الأساسية التي تخص المؤلف والمكانة المعرفية للخطاب القرآني^(٤٥).

ومن بين الأسباب أيضا التي جعلت التحليل اللساني له الأولوية في نظر أركون هو أنه ((يجبر الدارس على ممارسة تمرين من التقشف والنقاء العقلي والفكري لا بد منه. يمثل ذلك فضيلة ثمينة جدا وخصوصا أن الأمر يتعلق هنا بقراءة نصوص محددة كانت قد ولدت وشكلت طيلة أجيال عديدة الحساسة والمخيال الجماعيين والفرديين))^(٤٦).

هذا التحليل اللساني عند أركون يحظى بأولوية على الرغم من تقنيته لأنه ينزع الهيبة ويحيد الشحنات اللاهوتية عن النص القرآني، حيث ينظر إليه من زاوية كونه نصا لغويا يتركب من حروف وألفاظ وجمل ولذلك فإنه يحقق هدفا تربويا وتثقيفيا كبيرا فهو يساعد ((القارئ على استبصار الآليات الأزلية التي لا تختزل لكل مفصلة لغوية ودلالية للمعنى أقصد مفصلة هادفة إلى توصيل رسالة ما))^(٤٧).

وكما يقول أركون في موضع آخر ((في شبكة فضاء التوصيل المشكّلة على هذا النحو يتشكّل المعنى الحقيقي والنهائي عن الله والعالم والإنسان والتاريخ ويمكننا هنا أن نتحدث عن التشكّل الأولي والأصلي المولّد والمتعالى للمعنى. هذا المعنى الذي سوف يمارس دوره كمصدر لكل المعاني الثانوية المشتقة والمولدة من قبل البشر))^(٤٨).

كما يمثل هذا التحليل في اعتقاد أركون استراتيجية تربوية للتحرير، لأنه يحرر القارئ من المعاني الإجبارية والمسلمات التي تفرضها القراءة الإيمانية الكلاسيكية وهي القراءة التي تقف عقبة تكبح كل جهد في تحليل وتفكيك الخطاب الديني.

كما أن هذا التحليل يمكّننا من إدراك المكانة اللغوية للخطاب القرآني من خلال العناصر الآتية والتي يرتبها أركون كما يأتي:

١- ((كلام، منطوق، نطق، خطاب، نص.

٢- خطاب قرآني، مدونة رسمية مغلقة، مدونة مفسرة.

٣- البنات الإيقاعية أو صيغة التعبير.

- ٤- البنيات التركيبية والأدوات النحوية.
- ٥- المفردات: الشبكات المعجمية، الدلالات الأصلية، الدلالات الحاقة علم المعاني اللغوية.
- ٦- البلاغة: التنظيم المجازي للخطاب القرآني .
- ٧- محاولة لتحديد أنماط الخطاب القرآني: كالخطاب النبوي، والسردى، والتشريعى، (والجدالي) (٤٩).

والى جانب المكانة اللغوية للخطاب القرآني يحدد أيضا أشكال المضمون، وفيه:

- ١- فضاء التواصل: دراسة النطق أو التنصيص.
- ٢- النماذج العاملة: الفاعل الأول - المرسل - الذات (الله) : الفاعل - المرسل إليه - الذات (محمد) (ص) الفاعل - المرسل إليه - الذات (البشر). الناطق المتعالى: مكانة المتلقي (٥٠).
- وبهذه الكيفية يعتقد أركون أن كل تقدّم في تطبيق القراءة الألسنية على النص القرآني يسهم في فسح المجال أمام ولادة فكر تأويلي جديد للظاهرة الدينية. وهو يقصد من هذه القراءة لسورة التوبة التأكيد على السياق التاريخي- الثقافي في الخطاب القرآني، بمعنى دراسة الحوادث مجردة عن صفة القداسة التي أضفتها عليها الخطابات الدينية وجعلت منها نصوصا متعالية يصعب على الدارس مقاربتها أو المساس بها.
- فهي محاولة الرجوع بالأحداث إلى زمن وقوعها ودراستها حينئذ كحوادث تاريخية صرفة، لأن دراسة الحدث بعيدا عن الزمان والمكان الذي دسّن فيهما وجعله في ضمن دائرة المقدس يجعله يفقد تاريخيته ويرتقي به إلى صنف المقدسات ومن ثم يقف بعيدا عن التاريخ الذي أوجده.
- ذلك أن النصوص القرآنية التي تحتوي على أحداث تاريخية كسورة التوبة التي نقلت وقائع ما بعد فتح مكة، وبالتحديد السنة التاسعة من الهجرة، وسورة الأنفال التي نقلت أحداث واقعة بدر، وغيرها من السور ذات الطابع التاريخي، تشترك في ذات الطريقة التي تربط الحدث بالله تعالى مباشرة على نحو من المجاز المتعالى الذي يعطي تصورا بأنّ هذه النصوص قابلة للتطبيق على كل زمان ومكان. هذه الديناميكية المحرّكة تنشأ من ذلك الربط الحدثي الإلهي، ولولاه لكانت مجرد وقائع تاريخية على مسرح الحياة وقد أسدل الستار عليها بمجرد أن اختتمت فصولها.

فهذه النصوص من قبيل قوله تعالى ((فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ)) {التوبة/٦}، وقوله ((وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْؤَا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)) {التوبة/١٢-١٣}، وقوله ((قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)) {التوبة/١٤}.

فهذه النصوص لا يمكن النظر إليها بعيدا عن تاريخيتها التي تشكلت فيها، لأنّ القول بصلاحيّة النص لكل زمان ومكان ستوقع المسلمين في إشكالية خطيرة وهي كونه دين يتبنى العنف ويحرّض على القتال، وأنه يتبنى الإرهاب العالمي، ضد كل من لا يؤمن بدين الإسلام، أي كل من كان كافر بأحكام الإسلام.

فلا محيص للمسلمين - بحسب القراءة الحداثيّة- إلا أن يتبنوا كون النص القرآني نصا اجتماعيا- ثقافيا خاضعا لظروف تاريخية محددة، فهو محاور مجادل في مكة تارة، ومحارب مقاتل في المدينة تارة أخرى بعدما استمسك وتوسع واشتد ساعده.

وفي الحقيقة فإنّ الرهان على هذه الإشكالات، أجيب عنه بأنّ النص القرآني إنما جاء على سبيل التغيير التدريجي في هذه المجتمعات وعلى نحو التدرج في العلاقة مع الطوائف الأخرى غير المؤمنة سواء كانوا مشركين أم أهل كتاب وليس على نحو التغيير القسري أو الفرض الجبري أو التعامل بمنهج واحد.

وعليه فإنّ اللهجة الجدالية الحادة في سورة التوبة أو التحريض على العنف إنما جاء وفق ظروف اجتماعية- ثقافية استدعت ذلك الأسلوب والنمط من التعامل مع هذه الطوائف غير المؤمنة كاشفة من خلال نصها عن الصراع بين هذه الطوائف والكيفية التي ينبغي على الرسول التعامل بها معهم في ظل استحكامه وسعيه للتغيير بشق مسار جديد يهدف للتغيير من خلال استراتيجية فاعلة في رسم ملامح المستقبل الإنساني.

الخاتمة

١- بيّن البحث أنه يصعب إعطاء تعريف واحد محددة للتواصل، والسبب في ذلك يرجع إلى أن التواصل الإنساني أصبح حقلاً معرفياً تتقاسمه العديد من المعارف والعلوم.

٢- بيّن البحث أنّ الهدف من دراسة محمد أركون لسورة التوبة هو زحزحة مفهوم الوحي وتجاوزه، بإيجاد مفهوم أكثر حساسية وموضوعية وذلك من خلال صيرورته الاجتماعية والتاريخية وتركيبته النحوية اللسانية.

٣- بيّن البحث أن رؤية أركون للخطاب القرآني بقصصه وأحكامه وموضوعاته وتعاليمه وأحداثه وكل ما يحتويه والمعبر عنه خلال ثلاث وعشرين سنة بصفته (كلام الله) هو تركيبية نحوية هرمية صارمة تدور حول شخصين: الأول هو الله الذي يمثل الأصل الانطولوجي والمرجع النهائي لجميع المخلوقات والنشاطات والمعاني والأحداث التي تقع على هذه الأرض. والثاني: هو النبي أو الرسول محمد (ص) الذي يمثل الوسيط بين الله والإنسان.

٤- وضح أركون أن هذه التركيبية لا تعبر عن تعارض ثنائي بين قطبين: الله والإنسان، إنما هو في حقيقة الأمر يعبر عن جدلية مستمرة من التوتر الصراعي الذي ينبثق من خلاله الوعي بالذنب والخطيئة. وعندئذ يحوّل الإنسان من توتر صراعي إلى وعي وذات مفكرة مسؤولة أخلاقياً وشرعياً، أي أن الخطاب القرآني ينتهي إلى تمركز الإنسان بمعنى تحويله من ذات خاضعة مسلّمة إلى ذات واعية مفكرة وفاعلة ومسؤولة. وعليه فإن الإنسان في الخطاب القرآني هو - ذات فاعلة - بحسب أركون وليس ذات سلبية ومنفعلة.

٥- حاول أركون من خلال تطبيق القراءة الألسنية على النص القرآني أن يسهم في فسح المجال أمام ولادة فكر تأويلي جديد للظاهرة الدينية. وهو يقصد من هذه القراءة لسورة التوبة التأكيد على السياق التاريخي- الثقافي في الخطاب القرآني، بمعنى دراسة الحوادث مجردة عن صفة القداسة التي أضفتها عليها الخطابات الدينية وجعلت منها نصوصاً متعالية يصعب على الدارس مقاربتها أو المساس بها.

الهوامش:

- (١) ظ: الاتصال اللساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، إبراهيم أبو يعقوب، دار مجدلاوي، مصر، (د.ت)، ١٧.
- (٢) ظ: مقدمة في وسائل الاتصال الجماهيري، فضيل دبليو، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ط)، ١٩٩٨م، ٢٤.
- (٣) ظ: م. ن. وظ: الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، سامية بن يامنة، مجلة دراسات أدبية، الجزائر، ع١، ٢٠٠٨م، ٤٨.
- (٤) ابن منظور ٧٢٦/١١-٧٢٨.
- (٥) ظ: التواصل الإنساني دراسة لسانية، م.محمد اسماعيلي علوي، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط١، ٢٠١٢م، ١٨.
- (1) Voir Dictionnaire de Linguistique, paris librairie la rouse, 1973, p;96.
- نقلا عن: اللغة والتواصل، عبد الجليل مرتاض، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٠م، ٧٨-٧٩.
- (٧) ظ: التواصل الإنساني دراسة لسانية، محمد اسماعيلي ١١١-١٢٠.
- (٨) ظ: قضايا لغوية ١٧.
- (٩) ظ: المدخل إلى دراسة النحو العربي، علي أبو المكارم، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ١٨.
- (١٠) ظ: علم اللغة العام، فردينان دي سوسير، ترجمة يوثيل عزيز ٢٩-٣٠.
- (١١) ظ: البنيوية في اللسانيات، محمد الحناش، دار الرشاد الحديثة، دار البيضاء، ط١، ١٩٨٠م، ١٩٠/١-١٩١.
- (١٢) ظ: التواصل اللساني والشعرية، الطاهر بو مزير، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٧م، ٢٤.
- (١٣) ظ: العلاقة بين القارئ والنص في التفكير الأدبي المعاصر، رشيد بنجدو، مجلة عالم الفكر، مجلد ٢٣، ١٩٩٤م، ٤٧٦.
- (١٤) التواصل اللساني والشعرية، الطاهر بو مزير ٢٧.
- (١٥) نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، د.حسين خمري، ط١، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٧، ٢٦٥-٢٧٧. وظ: السيميائية وفلسفة اللغة امبرتو ايكو، ترجمة د. أحمد الصمعي، ط١، المنظمة العربية للترجمة بيروت، ٢٠٠٥م، ٣٩٠-٤٤٠.
- (١٦) ظ: التواصل اللساني والشعرية ٣٠-٣٣.
- (١٧) ظ: م. ن.
- (١٨) ظ: قضايا أدبية عامة، موراليس برنارد فريس ايمانويل، ترجمة لطيف زيتوني، عالم المعرفة، عدد ٣٠٠، الكويت ٢٠٠٤، ٣٥-٤٤.
- (١٩) ظ: التواصل اللساني والشعرية ٣٦. وظ: الأسلوب والأسلوبية نحو بديل ألسني في نقد الأدب، عبد السلام المسدي، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس، (د.ط)، ١٩٧٧م، ١٥٨.
- (٢٠) ظ: التواصل اللساني والشعرية ٣٩-٤٣.
- (٢١) ظ: م. ن ٤٣.
- (٢٢) ظ: التواصل اللساني والشعرية ٤٥-٤٦. وظ: قضايا أدبية عامة، برنارد مورالس ايمانويل فريس ٤٥-٤٦.
- (٢٣) ظ: م. ن.
- (٢٤) ظ: نظرية النص، حسين خمري ٢٧٩. ظ: التواصل اللساني والشعرية ٤٦.

(٢٥) ظ: النظرية الألسنية عند رومان جاكسون، فاطمة بركة الطبال، المؤسسة الجامعية للدراسات ببيروت ١٩٩٢، ٧٤.

(٢٦) أضواء على الألسنية، د. هيام كريدية، ط١، ٢٠٠٨، ١١٤.

(٢٧) ظ: القرآن من التفسير الموروث ٤٩-٥٠.

(٢٨) م. ن ٧٦-٧٧.

(٢٩) م. ن ٥٦.

(٣٠) م. ن.

(٣١) ظ: م. ن ٥٧.

(٣٢) ظ: م. ن ٦١.

(٣٣) ظ: م. ن ٦٢.

(٣٤) م. ن ٣١.

(٣٥) م. ن.

(٣٦) م. ن.

(٣٧) م. ن.

(٣٨) ظ: م. ن، هامش: هاشم صالح ٦٠.

(٣٩) ظ: م. ن ٦١.

(٤٠) ظ: م. ن.

(٤١) م. ن ٦١.

(٤٢) م. ن ٦٣.

(٤٣) م. ن ٦٤.

(٤٤) م. ن ٦٢.

(٤٥) م. ن ٣٥.

(٤٦) الفكر الإسلامي قراءة علمية ٣٢.

(٤٧) م. ن ٦٢.

(٤٨) من فيصل التفرقة إلى فصل المقال ... أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ محمد أركون، ترجمة وتعليق هاشم

صالح، دار الساقى، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، ٨٨.

(50) mohammed arkoun, lectures du coran, o p.cit p26

نقلا عن: الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، مصطفى كحيل، أطروحة دكتوراه في الفلسفة، جامعة منتوري-

قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٧-٢٠٠٨م، ٢٩٨.

(٥١) م. ن.

المصادر والمراجع:

❖ القرآن الكريم

- الاتصال اللساني بين البلاغة والتداولية، سامية بن يامنة، مجلة دراسات أدبية، الجزائر، ع ١، ٢٠٠٨م.
- الاتصال اللساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، إبراهيم أبو يعقوب، دار مجدلاوي، مصر، (د. ت).
- الأسلوب والأسلوبية نحو بديل ألسني في نقد الأدب، عبد السلام المسدي، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس، (د. ط)، ١٩٧٧م.
- أضواء على الألسنية، د. هيام كريدية، ط ١، ٢٠٠٨م.
- الألسنة والتأويل في فكر محمد أركون، مصطفى كحيل، أطروحة دكتوراه في الفلسفة، جامعة منتوري - قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٧-٢٠٠٨م.
- البنيوية في اللسانيات، محمد الحناش، دار الرشاد الحديثة، دار البيضاء، ط ١، ١٩٨٠م.
- تقنيات الاتصال التعليمي في القرآن والسنة، عبد العظيم عبد السلام الفرجاني، دار المغرب، المغرب، ٢٠٠٠م.
- التواصل الإنساني دراسة لسانية، م. محمد اسماعيلي علوي، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط ١، ٢٠١٢م.
- التواصل اللساني والشعرية، الطاهر بو مزير، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٧م.
- السيميائية وفلسفة اللغة اميرتو ايكو، ترجمة د. أحمد الصمعي، ط ١، المنظمة العربية للترجمة بيروت، ٢٠٠٥م.
- العلاقة بين القارئ والنص في التفكير الأدبي المعاصر، رشيد بنجدو، مجلة عالم الفكر، مجلد ٢٣، ١٩٩٤م.
- علم اللغة العام، فردينان دي سوسور، ترجمة: د. يوثيل يوسف عزيز، مراجعة: د. مالك يوسف المطليبي، (د. ط)، بيت الموصل، ١٩٨٨م.
- القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، محمد أركون، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط ٢، ٢٠٠١م.

-
- قضايا أدبية عامة، موراليس برنارد فريس ايمانويل، ترجمة لطيف زيتوني، عالم المعرفة، عدد ٣٠٠، الكويت ٢٠٠٤م.
 - لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، ١٩٥٥-١٩٥٦م.
 - اللغة والتواصل، عبد الجليل مرتاض، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٠م.
 - المدخل إلى دراسة النحو العربي، علي أبو المكارم، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
 - مقدمة في وسائل الاتصال الجماهيري، فضيل دبليو، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ط)، ١٩٩٨م.
 - من فيصل التفرقة إلى فصل المقال ... أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ محمد أركون، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.
 - النظرية الألسنية عند رومان جاكسون، فاطمة بركة الطبال، المؤسسة الجامعية للدراسات بيروت ١٩٩٢م.
 - نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، د.حسين خمري، ط ١، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٧م.